الثقافة .. وتحديات العولمة

قاسم الدباغ

مفهوم العولمة

تحتل العولمة الظاهرة الأكثر اهتماما وجدلا خلال القرن الحادي والعشرين وعلى كافة المستويات العالمية، وذلك لما تتمتع به من إمكانيات وطاقات قادرة على التداخل والتفاعل مع كافة النشاطات البشرية، وفرض قناعاتها من خلال هذا المفهوم الواسع الهادف بتوحيد أشكال التعبير الثقافي في جميع أنحاء العالم وفق نمط واحد، من خلال توطين وضع صياغة جديدة تؤدي إلى التجانس بين أفراد المجتمع بقيم وعادات تزيد من وحدتهم حسب منهجها المعلن خلاف العادات والتقاليد السائدة، ، ويمتد ذلك إلى التدخل في أدق تفاصيل حياة الفرد من مأكل وملبس والسلع والسلوك وغيرها، وبشكل مغري يصعب مقاومته خصوصا من الشباب المتعطش للتغيير.

مفهوم الثقافة

موقف العولمة من مفهوم الثقافة وبكل ما تتضمنه من مؤشرات ومفاهيم يثير أكثر من سؤال واستفهام عن باقي المفاهيم الإنسانية الأخرى، وذلك لتعارضهما في نظرتهما في كيفية بناء إنسان المستقبل، فأسلوب العولمة المقترح لآجل ذلك هو تغيير أو حتى إلغاء كل المقومات التي ترتبط بوعي الإنسان، وإبدالها بمفاهيم حديثة (حضارية) تتوافق مع أهداف العولمة ونشرها عالميا، وهو ما لا ينسجم مع الطبيعة الإنسانية والمتعمقة في ذهنية الفرد منذ آلاف السنين (الثقافة هي ذلك المركب الذي يشمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات ..، وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضو في مجتمع) الدعمي،2011، ص93، أي وجود ترابط دلالي بين الفرد والحياة قد يتجسد في عقيدة أو مذهب فكري أو مسلك أخلاقي، فالثقافة هي ضمير الآمة لاحتوائها على تطلعات المجتمع في بناء مستقبله ،ومحاولة التغيير أو التبديل قد يحصل بصورة أسرع في الجانب المادي لمتطلبات الحياة وقلما يحدث تأثيرا في الجانب المعنوي (أن التغير يعني التبدل الذي يحدث بنية النسق الاجتماعي ووظيفته، أي الذي يصيب البناء الاجتماعي والقيم

والعادات والأدوار من خلال مدة من الزمن، والتغير الاجتماعي يختص بالجانب اللامادي للثقافة) الربيعي ، 2020 ، ص 54

التربية والتعليم:

التربية والتعليم يمثلان البوابة الرئيسية في تحديد شكل الثقافة السائدة لدى أي المجتمع، ومدى تقدمه الحضاري أسوة بباقي المجتمعات الأخرى ومدى انعكاس ذلك على هويته الوطنية، ككيان مستقل يتمتع بمنهجية معرفية قادرة على نقلها من جيل لأخر، ولتوضيح دور كل من التربية والتعليم في تفعيل هذا المنهج يكون لزاما علينا التعريف بكل منهما وفق سياقات البحث العلمي وما يترتب عليه من افتراضات خاصة، مع أن كلاهما مفهومان متلازمان وكثيرا ما يطغي مفهوم احدهما على الآخر في حالات عدم الدقة والتخصيص، خصوصا بالنسبة للمبتدئين وفي المراحل الأولى من التعليم، فما من مجتمع أصبح يخلو من اعتماد نشر الوعي التعليمي بين أفراده وعلى كافة المستويات المختلفة، والالتزام بمواكبة المستجدات الحاصلة من الخارج، من أجل بناء إنسان متحضر يعي بمسؤولياته المستقبلية تجاه مجتمعه .

الفرق بين التربية والتعليم

يفرض علينا تسألنا السابق عن أمكانية الخلط والتشابه بين مفهومي التربية والتعليم ، تبيان دور كل منهما منهجيا وواقعيا في رسم الثقافة الوطنية بالشكل القويم الخالي من الاجتهادات الجانبية، التي يمكن أن تخلق الكثير من المصدات في تحقيق برنامج تربوي علمي، كما سنبين دور كل منهما في حياة المجتمع وبحسب كل فئاته العمرية والثقافية.

للتربية حضور أساسي ومهم في بناء ثقافة وطنية ذات طابع خاص مستمد من طبيعة ذلك المجتمع، فالتربية تعتمد أصلا على مجموعة القيم الأخلاقية والعادات والأصول الدينية والتي تسهم في سلوك الأفراد داخل مجتمعاتهم، وهي من المؤثرات الفاعلة على الأفراد ضمن بيئيته التي يوجد فيها، التي تقسم أهميتها بين العائلة والمحيط الخارجي الذي يعيش فيه الفرد، ومن أهم مواصفاتها أن تأثيرها على الفرد يبدأ منذ السنوات الأولى لولادة الطفل، ثم تستمر عمليات إضافة وتخزين من معلومات متعددة وصقلها بشكل نافع في بناء شخصية الفرد، وتحميله ما يمكن من القدرات والخبرات التي تفيد المجتمع، فهي بمثابة خط الدفاع الأول والأخير في مواجهة كل الآفات التي تعاني

منها المجتمعات المتخلفة، مثل الانحرافات والجرائم والسلوكيات السلبية والضغط على انتشار مظاهر العنف، وبناء علاقات توافقية بين الأفراد والشعور بالمسؤولية العامة من ضمن المسؤولية الخاصة.

أما التعليم فهو عملية تفاعلية تنتقل فيها الخبرات والمعارف من ذهن المعلم إلى ذهن المتعلم، ولا يرتبط ذلك بمدة زمنية أو وقت محدد وإنما حسب الظرف الملائم لذلك، فعمليات التعليم هي بمثابة مخزون من التراكمات المعرفية، التي يتلقاها الفرد ممن هم يملكون بعض المؤهلات من هذه المعلومات، ألا أن ما يكسبه الفرد من موارد تعليمية ومع انسجامها مع رغباته وتطلعاته تكون خاضعة للتمحيص والاختبار، فعملية التعليم تحاول إيصال المعلومة بقناعة واطمئنان إلى المتعلم بكونها الرافد الأساس لبناء ثقافة عامة ورصينة، فما الثقافة ألا تفعيل لمعلوماتنا المكتسبة سواء من البيت أو وسائل التعليم أو عمليات التواصل الاجتماعي.. وغيرها من الوسائل، فتوقع حدوث أي خطأ أو انحراف قد يؤدي إلى نتائج كارثية (أن وضع إستراتيجية للثقافة ذات أهداف محددة، وبمشاركة جميع الدوائر والمؤسسات المعنية، متضمن ببرامج واليات خاضعة للمراجعة والتقييم وإعادة النظر لم يعد ترفا أو طموحا غير واقعي، أو امرأ فائضا عن الحاجة في عالمنا المعاصر) العيسى، بحث ، سنة2005

يبقى التساؤل بعد كل ذلك.. في أي مستوى من التعليم نحن ألان..؟. وما إمكانياتنا على خلق بنية ثقافية ذات طابع علمي..!! علما أن مستويات التعليم في أغلب المجتمعات المتخلفة دون المستوى المطلوب، وذلك بسبب تفشي الأمية وهيمنة الخرافات على الطابع الفكري لتلك المجتمعات (أن مدى تفشي الأمية في العالم النامي، مسؤول بالدرجة الأولى عن استمرار الذهنية غير العلمية التي تسيطر عليها الخرافة) حجازي ، 2005، ص 78 ، فالمعلومات المكتسبة من الخرافات والعادات لها من القوة والنفوذ في إعاقة أي محاولة علمية تم اكتسابها والعودة إلى سابق عهدها، وكان من نتائج ذلك أن التعليم أصبح يعاني من ازدواجية ما بين أساليب التعلم الحديثة المستوحاة من الحقائق العلمية وبين الموروث المشبع بالخرافات، وكثيرا ما يكون له الحظوة لدى المتلقي تأثرا بالبيئة المتخلفة والسائدة، مما يزيد من حراجة الموقف لدى المعلم في تسخير جهدا أكبر لمقاومة مثل هذه المظاهر السلبية .

كما أن للأسلوب التربوي له اثر كبير في الحفاظ على نقل المعلومة بصورتها العلمية وتقبلها من المتعلم، في حين أن أسلوب التعليم لدينا كثيرا ما يرافقه علاقة تسلطية ترفض المناقشة أو الاعتراض من قبل المتلقي، كما أن المناهج والمواد التدريسية غالبا ما تكون ثابتة ومكررة مع مرور الوقت، دون أي محاولة في حصول أي تغيير يذكر قد يحدث في العالم الخارجي من معلمات مستجدة وتفعيله ، مما تخلق نوعا من النفور والملل النفسي بالنسبة للمتلقي،وأيضا خشية المعلم من ممارسة أي أسلوب مجدد في منهاجه خوفا من الرأي العام المتسلط والمحافظ (أن الفئة المسيطرة تمارس صنوفا من الضغط والإرهاب المعيشي على المعلمين الذين يحلمون بالتغيير) حجازي، 2005 ، ص78 مما يجبر المعلم على نقل المعلومات الخرافية دون قناعة منه .

الثقافة .. وتحديات العولمة

بسبب التطورات الكبيرة التي حظيت بها للعولمة وامتدادها على كافة مرافق الحياة لتشمل الجانب المادي والمعنوي منها، وكان للجانب المادي(التكنولوجي) السبق في امتداد نفوذها بسبب الوضع للاقتصاد الدولي وحاجته للحداثة، وهو ما استغلته العولمة كتبشير بمرحلة جديدة لفتح الأسواق العالمية وفتح الحدود أمام السلع ومنح القروض الميسرة للدول الفقيرة، وكامتداد متطور للنظام الرأسمالي الذي أصبح منفردا على الساحة العالمية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، والتخلص من الحرب الباردة بينهما (يكاد يجمع الدارسون والباحثون والمهتمون بدراسة أصول العولمة على أنها امتداد للنظام الرأسمالي، الذي تكرس بالثورة الصناعية في أوربا أولا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا ثانيا، التي ساعدت في انهيار الاتحاد السوفيتي وبالتالي إنهاء الحرب الباردة، مما أسهم في تحويل العالم إلى ما يسمى اليوم بـ ((عالم القرية)) بريجنسكي، 1999، ص 58 ويمكن أن يكون هذا التفسير خير ما يمثل لنفوذ العولمة في العالم بصورة كاملة، وكظاهرة عامة هدفها الهيمنة كافة مظاهر الحياة المادية كالتكنولوجيا وكذلك مظاهر الحياة المعنوية كالثقافة، وبشكل متسارع يمتد كالإخطبوط وباحتواء كامل، ألا أن التأثير المعنوي للعولمة لم يحدث بصورة اعتباطية بعيدا عن المؤثرات الأخرى، بل كان للتأثير المادي (التكنولوجي) دورا واضحا في عملية هذا التغيير الذي تطلب بيئة مناسبة له خصوصا لدى الدول المتخلفة صناعيا، وذوات المجتمعات المحافظة التي لا ترغب بالتغيرات المستحدثة، خصوصا وأن العولمة غالبا ما تكون متغيراتها شاملة كالتغيير في التعليم

والأعراف والتقاليد والطقوس الدينية والملابس والطعام وغيرها و (تنطوي العولمة على العديد من الجوانب التي تجعل من الصعب حصرها على صعيد واحد، كأن يكون اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا، كلا على حدة، بل تعني أيضا الصلة بما هو محلي) أمين / ص 70، وكان من أبرز ما تعرضت له العولمة من الجانب المعنوي هو الجانب الثقافي الذي ضم أغلب الجوانب المعنوية المتفاعلة بين أفراد المجتمع وبحسب وضعه الخاص، فكان للعولمة دورا رياديا في مواجهة الجانب الثقافي بكل الوسائل الممكنة، والتأثير على كافة جوانبها من خلال الإمكانيات الهائلة التي تتمتع بها، كأسلوب الضغط والقهر والاستلاب للدول الضعيفة، والتي تفتقد لأبسط الوسائل الدفاعية للرد على هذه التحديات، ألا أن ذلك لا يعني استسلامها للواقع الجديد أو عدم حدوث مقاومة من بعض أفراد المجتمع، مع الإقرار بضعف عمليات المواجهة أمام تحديات العولمة .

العولمة.. والهوية

تمثل الهوية مجمل السمات والخصوصيات التي تميز شخصا أو مجموعة من الناس عن غيرهم، وبما يتمتع به هؤلاء من خصائص تمثل هويتهم الخاصة بهم أيضا، والدافع الأساس في تطوير هذه السمات والخصوصيات هي الثقافة بكل مجالاتها، لذا فأن الهوية جزء من الثقافة وهي من يحركها ويجعلها في وضع حركي (ديناميكي)، وتسعى الهوية في الحفاظ على مكوناتها من أي تأثير خارجي أو داخلي وتقع مسؤولية ذلك على كل من الفرد أو المجتمع، وهو ما تسعى إليه العولمة في أيجاد البدائل لمقومات حديثة ومغريات نوعية هدفها إلغاء الهوية ، و(تطرح العولمة مسالة الانتماء بحدة خاصة، ذلك أن أحد أبرز الانتقادات الموجهة إليها يتمثل في إنها تقضي على الهويات الوطنية، حيث تحاول إتباع المنخرطين فيها لثقافتها الخاصة التي تتعارض مع الثقافات الوطنية) حجازي، 2010 ، ص197.

يبرز التناقض ما بين العولمة والهوية كأمر حتمي فلا يمكن أن تكون هناك عولمة بوجود الهوية الوطنية، وكما وصفت العولمة عالميا وبشكل موجز (بانها ..هي إلغاء الهوية)، وهناك من صور الصراع بينهما بأنه أشبه بالطريدة (الهوية) والصياد (العولمة)، وسيستمر الصراع بينهما حتى تحصل الغلبة لأحدهم ما دام هناك جمهور مشجع للاثنين، فمع ما تتمتع به العولمة من إمكانيات متنوعة (مادية ومعنوية) ألا أن للهوية أيضا حضورها الخاص لدى الجميع أفرادا أو جماعات ومن الصعب تفكيكها (والهوية يمكن أن

تشير إلى معنى فردي أي تخص الفرد وما يملكه من خلفية ثقافية وقيم، وقد تشير إلى مجتمع وهويته ومركزه، وقد تشير إلى امة ومكانتها بين الأمم) مرسول، ص 35 ، السنة لا يوجد .

من خصائص الهوية أنها ظاهرة تميل إلى التحفظ ولا تتقبل التغيير ألا ضمن حدود معينة على أن لا يكون هناك مساس بالتقليد والقيم السائدة، والتوافق مع المستجدات الأخرى غير المباشرة تبعا للظروف وقد يأخذ ذلك وقتا طويلا من الزمن (فصيرورة الهوية وأن كانت سيالة عبر التأريخ، ألا أن حركتها هذه لا تتم دفعيا بل إنسانيا عبر الزمان والمكان والحراك التاريخي العقدي والفكري والنفسي والروحي والاقتصادي) عبد الرحيم ،2013 ،ص 63

من المميزات الأخرى والمهمة التي تتمتع بها الهوية التي تساعدها على الديمومة أمام التحديات، إنها تتفاعل مع الآخرين بوجهين متناقضين الأول هو البناء على الضد، حيث تمثل خصوصيتها باختلافها مع الهويات الأخرى، أما الثاني فهو البناء على المماثلة مع الأفراد المنتمين لها، ولأجل احتواء المفهوم الحقيقي للهوية فيمكن القول أنها (حالة ذهنية أو ثقافية تتكون من طرائق التفكير والعمل والسلوك الجمعي، وتجمع بين انتماءات متعددة وتمنح أفراد المجتمع مشاعر وطنية مشتركة تتصف بالتمايز والشمول والاستمرارية التي تمنحهم الاستقرار والطمأنينة) الحيدري، 2004 ، العدد9319

وهذا خير مدخل في تفهم كينونة الهوية ويقربنا أكثر من أهدافها وطبيعة نسيجها وأهميتها، ألا أن وحدة الهوية وتنميتها موضوعيا يعتمد على أن تكون هوية منتجة ذات مستقبل تنموي، ترفع من قيمة الفرد ماديا كما رفعته معنويا أمام باقي المجتمعات الأخرى.

العولمة .. والشباب

التصريح بان (العولمة هي الشباب.. وأن الشباب هم العولمة) أمر لا يبعدنا عن الصواب كثيرا، فالرابط ما بينهما من القوة والمتانة ما يؤكد ذلك على ضؤ مصالحهما المشتركة، فالشباب وما يتمتعون به من مرونة فكرية ورغبة في التغيير بسبب وضعهم النفسي، وفي محاولة التخلص من هيمنة الطابع الأسري والحرمان من إشباع احتياجاتهم من الدولة والأسرة، كل ذلك جعلهم يندفعوا لإغراءات العولمة وما تبشر به من تنفيذ متطلباتهم المادية والمعنوية .

كما أن ما يثير الاهتمام بقدرة العولمة في الهيمنة على مساحات واسعة من العالم، يعود أصلا إلى النسب العالية التي يمثلها الشباب من سكان العالم، كل ذلك أدى إلى خلق نوعا من الاضطراب العالمي بين المجتمعات وعلى اختلاف أنواعها (فالعولمة تشدهم إلى فرصها وطموحاتها وآفاقها المذهلة والمدهشة والواعدة والمثيرة للحيوية، والأسرة تجهد للحفاظ على أبناءها الشباب وارتباطهم بها واستمرارية رعايتهم لهم) حجازي ، 2010 ، ص 279

أن الصراعات التي يتعرض لها الشباب جراء هيمنة العولمة على حياتهم ومحاولة غسيل دماغهم وتوظيفهم لخدمتها، شكل اضطرابا اجتماعيا واسعا بين التصرفات الشبابية والآخرين، وقد تجسد ذلك بأكثر ما ظهر هو بين مفاهيم العولمة وأسر الشباب الذين بداؤا يشعرون بان أبناء هم ينجرفون لمظاهر العولمة البعيدة عن تقاليدهم وسلوكياتهم، مما سبب تخلخلا في الكيان الأسري وتفككهم لاتجاهات مختلفة، وما يدعو ذلك إلى التساؤل حول النتائج المستقبلية لهذا الانجراف الاجتماعي وخصوصا منهم الشباب؟؟ فالعالم الرأسمالي هو عالم بملامح تكنولوجية بعيدة عن القيم والاعتبارات الإنسانية تماما، وهيمنته على الفرد تنطلق من اعتباره مجرد آلة صناعية تخدم مصالحه. ويجعله مستلبا من كل أراداته وقراراته وعواطفه أيضا، وتكون انتماءاته مع الآخرين مجرد وهم لا يمكن التفاعل معها مستقبلا بكيانات المجتمعات بكل أشكالها، التي هي من نتاج مظاهر العولمة وهدفها في تحطيم البنية الاجتماعية (أذ أن سبب مأساة " الفرد الضائع" هو تلك الحقيقة القائلة بأنه على الرغم من كون الأفراد موجودين في تجمع واسع من الروابط، ألا أنه لا يوجد انعكاس مترابط أو متناغم لأهمية هذه الصلات في وجهة كل منهم للحياة عاطفيا أو تصوريا) (ديوي) سنة 2014 ، ص 78.

أن التلميحات التي تؤكد على استلاب الفرد في الوقت الحاضر وعجزه عن الانتماء مع باقي أفراد المجتمع جراء العولمة، وكذلك ما يمكن أن يستحدثه النظام الرأسمالي من مفاهيم آخرى لا تصب في مصلحة الفرد وتفتيت الجماعة، ما هي ألا علامات على احتضار هذا النظام الذي لم يعد قادرا على قيادة العالم .

العولمة ... والبطالة

من المظاهر الخطيرة التي يخشاها النظام الرأسمالي ويحاول تجنبها أو علاجها هي ظاهرة البطالة، وما يمكن أن تسببه من تداعيات اجتماعية واقتصادية ونفسية قد

يصعب مجابهتها أو علاجها، خصوصا بعد الارتفاعات النسبية والسنوية لهذه الظاهرة على مدى السنوات الماضية، فالفرد العاطل مع انه يشكل عبئا ماليا على الدولة فأنه أيضا يمثل قنبلة موقوتة تهدد استقرار النظام، فلا أسوأ من فرد لا يجد قوت يومه أو توفر مورد يسد به نفقات معيشته، مما يعكس صورة سلبية عن الوضع العام للمجتمع، كما أن جل الاضطرابات والانتفاضات والثورات هي في واقع سببها البطالة .

مع كل هذه التداعيات التي تعاني منها اغلب مجتمعات العالم بسبب انتشار البطالة والعجز في مواجهتها، تبنت العولمة ومن خلال منهجها المزعوم بالقضاء عليها من خلال الاستثمارات في الجانب الصناعي ومنح قروض ميسرة للدول الضعيفة، ألا أن ذلك لم يحصل بل ازدادت من حدة البطالة بسبب مناهج العولمة المزعومة، وأيضا ازدادت حدة التقلبات والانتكاسات في بلدان النظام الرأسمالي، ولم يتم التوصل إلى أي حل أو معالجة لهذه الانتكاسات (فالعولمة أدت ألي ازدياد حدة الفقر على المستوى العالمي، وكان ،هدفها عولمة الفقر والى ازدياد الآثار السلبية للفقر، من قلة التغذية والأمراض وعدم القدرة على تطوير القدرات البشرية، ومن هنا يتضح من خلال الزيادة المستمرة لمعدلات الفقر، وفشل المنظمات الدولية في خططها لكبح الفقر) الطبيب، 2007

كل الوعود والتعهدات التي أطلقتها العولمة للدول الفقيرة بصورة خاصة من إمكانية تحسين وضعها ألمعاشي والتغلب على البطالة وغيرها، لم تفي بتعهداتها بأي شيئ منها بل حصل العكس من ذلك، فقد زادت حدة ونسب البطالة جراء سياسة السوق المفتوح الذي اكتسح المنتج المحلي ببضائع مستوردة وبمواصفات جيدة ورخيصة، مما زاد من حدة الفقر وخلق تفاوت تكنولوجي بين هذه الدول ودول الصناعات الكبرى، وكذلك خلق فجوة كبيرة في القدرات المهنية لهذه الدول المتخلفة مع قدرات العامل في دول الصناعات الكبرى، إضافة إلى تحمل هذه الدول إلى التقلبات الاقتصادية والمضاربات المصرفية التي انعكست سلبا على اقتصادها، ومن المؤشرات ذلك تكتل الأدمغة المقام في مدينة سان فرانسيسكو في عام 1995 وبتنظيم من غورباتشوف حدد مستقبل العمالة في عددين 20، 80، أو بصيغة أخرى عشرين إلى ثمانين مؤكدا (الطاقة البشرية القادرة على العمل ستتوزع مستقبلا ما بين 20% يعملون و80 % عاطلين عن العمل، ولقد قدر خبراء عدد من الشركات العملاقة، أن خمس قوة العمل الحالية ستكفي لسد احتياجات الخدمات رفيعة القيمة التي تحتاج

إليها العولمة) حجازي، 2006 ، ص 215 وهذه حقيقة صادمة لما للعولمة من دور كبير في رفع نسب البطالة في العالم، وبسبب تدخلها المباشر في الاقتصاد العالمي بحجة تنميته .

العولمة..والهجرة

تعد الهجرة من المظاهر الحضارية التي شاركت الإنسان في التعرف على المجالات التي لم يكن يعرفها من قبل، ولدوافع الانتقال من بيئة إلى بيئة أخرى غالبا ما يكون سببها ضرورات الحياة من أجل البقاء أحياء، كما يؤدي ذلك على إضافة الكثير من المعلومات المعنوية من جانب وتحسين وضعه المادي من جانب آخر،

وغالب ما تكون الهجرة أما بشكل فردي أو جماعي وحسب ما تقتضيه الظروف، سعيا لتحقيق عملية توازن لطبيعة الإنسان مع بعض مظاهر الطبيعة الغريبة والتي تشكل تحديا له، فقد تكون اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية ..وغيرها، فأي اختلال في احد هذه الظواهر قد يسبب له ضررا أو اضطرابا يضطره للبحث عن بديل آخر، وكثيرا ما تقع عاتق الهجرة على فئة الشباب، لاستعدادهم لتقبل التغيير وتحمل مشاق السفر وتكاليفه .

وقد حاولت العولمة استغلال هذه الظاهرة والتي تعتمد أصلا على التغيير وهو من أهم مناهج العولمة الرئيسة، فكان التشجيع على الهجرة من قبلها سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة واضحا وجليا، وفي توجه معتمدا أصلا نحو القوى العاملة في البلدان المتخلفة وخصوصا الشباب منهم، والذين كانوا يعانون أصلا من ضغوطات مختلفة ومعاناتهم من البطالة ومن قبل دولهم مما شجعهم على الهجرة أكثر (أن الإقصاء الاجتماعي يمثل العمليات التي تدفع الأفراد إلى حافة المجتمع، وتمنعهم من المشاركة الكلية بسبب مزية الفقر ونقص القدرات التنافسية وفرص العمل المستمرة، أو كنتيجة للتمييز ضدهم، وهذه العمليات تبعدهم عن العمل وتقوض فرصهم التعليمية) ياسين،،2007 ص 7 ،

وهذا ما يسمى بظاهرة (الدافعية) أي العوامل القاهرة التي تجعل الفرد يفكر بتغيير مكانه وبيئته والبحث عن مكان أخر أكثر تناسبا، مقابل المغريات التي يتأملها في البلد الآخر والتي تجعله ينجذب لذلك البلد ويسمى عامل (الجذب)، وهي أيضا تعتمد على نوع المسببات سواء السلبية أو الايجابية .

مع بزوغ ظاهرة العولمة وبعد مرور حقبة من السنين من سيطرتها على مقدرات العالم بكل جوانبه ومن ضمنها الهجرة، وما كان من تأثير سلبي للعولمة على الهجرة من خلال استغلال القوى العاملة في البلدان الفقيرة، ففي الوقت الذي تمت فيه إزالة الحواجز

القانونية والمادية أمام تدفق الأموال والسلع والخدمات لأصحاب الدول الكبيرة، تواجه الهجرة الدولية للدول الفقيرة معوقات وهواجس أمنية وحضارية وسياسية، بينما تتوسع التكتلات الدولية وتزال الحدود بين دولها وتتيسر نقل العمالة بينها، تكاثفت بالمقابل الإجراءات المانعة للهجرة من خارج هذه التكتلات، أن مثل هذه الأساليب الانتقائية والازدواجية في التعامل مع المهاجرين ومع دولهم قد سببت ضررا فادحا يصعب تفاديه، خصوصا وان التقدم الزمني أصبح يزيد من حدة هذه الأضرار، وما تزال هذه القضية شائكة دوليا لما سببته من إشكالات، خصوصا على التي تسعى لبناء مستقبلها التنموي .

العولمة .. والاغتراب

يشكل مفهوم الاغتراب محورا معقدا بين أجناس مختلفة من المفاهيم والرؤى ضمن المجالات المتعددة التي افرزها النظام الرأسمالي، التي اعتمدت أساسا على تفسير العلاقة ما بين العامل والمنتج، وما تسببه هذه العلاقة من حالات نفسية واستلاب اجتماعي واستغلال مادي من قبل صاحب العمل للعامل، الذي يؤدي إلى إحساس العامل بضعف العلاقة بين ما يقدمه من جهد وبين الإنتاج الذي يحصل عليه، وقد استغل هذه الظاهرة المفكر كارل ماركس في نظريته (فائض القيمة) التي تعني بكل إيجاز بأنها (الفرق بين القيمة التي أنتجها العامل وقوة العمل الخاصة به) بينما أساسا تكون من حق العامل وحده، أي استلاب لطاقات العامل بصورة استغلالية لا يجد فيها العامل له دورا حقيقيا في عملية الإنتاج، وإنما دوره لا يختلف عن باقي أدوات الإنتاج الأخرى ومنزوعا من الشعور الإنساني، فالعامل لا يبيع عملا معينا ولكنه يبيع قوة عمله، وهذه تحدد من قبل رب العمل نفسه بما تحقق له قيمة فائضة .

من أشد الانتقادات التي تعرضت لها النظرية الماركسية كانت من المفكرين المعارضين بسيطرة البروليتاريا على سدة الحكم في العالم، وتم تعريف الاغتراب من قبل هؤلاء على انه موضوع اجتماعي خالص بسبب انخفاض مستوى الوعي وصعوبة مد التواصل مع الآخرين و (الاغتراب هو حالة نفسية يشعر الفرد خلالها بالغربة، وانفصاله عن ذاته وعن رغباته ومبادئه وقيمه، وطموحاته، ويبدو من خلالها بعدم الفاعلية والانسحاب عن الواقع بسبب عوامل النقص المتعلقة بالحصيلة المعرفية لذاته من جهة، ومحصلة المعارف والسلوكيات الاجتماعية والثقافية من جهة أخرى) عباس، 2016، ص37

الاغتراب والعولمة كلاهما من نسيج الفكر الرأسمالي فلم يعرف عن هذين المفهومين شيئا قبل ظهور الرأسمالية، وأن تقاربهما في المضمون أتاح لهما أن يشكلا تضامنا جدليا بحيث أصبح كل منهما هو في الواقع مكملا للآخر، مما ساعد ذلك على انتشار العولمة بشكل أقوى بين صفوف الشباب خاصة، ولكن الخلل الداخلي بينهما هو في مدى متانة هذا التحالف، فالاغتراب كانت ولادته بصورة طبيعية من رحم الرأسمالية وكآمر واقع وحتمي، أما العولمة فهي ظاهرة طارئة فرضتها قوى دخيلة ذات مطامع استعمارية وغير مقبولة من أغلب المجتمعات بشتى أنواعها (أن العولمة صنيعة ظروف اقتصادية وسياسية محددة، فقد خلق رجال الحكم والقرار في الدول الرأسمالية العولمة من خلال قيامهم أو من يمثلهم بتوقيع الاتفاقيات) الدعمي، 2011 ص 297 ومما يزيد من ذلك هو الاعتراف الكامل من القادة الأمريكيون منهم أن العولمة ظاهرة أصلا هي أمريكية (أن العولمة لا تزيد على أن تكون ((وصفة أمريكية))، ويعلق بريجينسكي مسؤول الأمن القومي في ظل إدارة الرئيس الأمريكي السابق جيرالد فورد على ذلك بالقول أن التأكيد على ((أمركة العولمة)) الطبيب، 2001 ، ص141

العولمة تحاول أن تتلبس مع الاغتراب موقعا ثقافيا (حداثيا) لإفساح مساحة أكبر من خلاله للتوسع في انتشارها عالميا، ومن خلال القدرة على تلافي ما يعانيه المغترب من احتياجات مادية أو معنوية وكذلك النفسية، وقد نجحت بعض الشيئ خصوصا لدى الدول المتخلفة والفقيرة .

العولمة .. والقيم الإنسانية

يضم مفهوم القيم الإنسانية الكثير من المفاهيم التي يعتز بها المجتمع والتي تعتبر من المظاهر الثابتة والمتوارثة، ومن الصعب المساس أو التلاعب بها من قبل أي جهة مهما كان موقعها، ومع اختلافها في صيغها من مجتمع لآخر أو حتى من منطقة إلى أخرى ألا أنها تحافظ على اعتباراتها، كما أنها لها دورها الحاسم والمميز في بناء شخصية الجميع سواء كان فردا أو مجموعة من الأفراد، مما يفترض على الجميع مسؤولية الحفاظ والذود عن هذه القيم التي تمثل خصوصيتهم، والتي يتم توارثها عن الآباء إلى الأبناء وحسب الطقوس المرعية والمتفق عليها من الجميع، وفي حالة احتمال تعرضها للتغيرات لآي سبب كان فأن ذلك يتطلب فترات زمنية طويلة أو ظروف قاهرة (قد تتعدل أو تختفي بعض من تلك العادات والأعراف والتقاليد أما كليا أو جزئيا، بينما تتم التغيرات التي تحدث في

الجانب المادي بصورة أسرع من الجانب المعنوي ((الثقافة))، وخلال ذلك التغير قد يحصل التخلف أو التقدم) الربيعي 2020 ، ص 84

ولأجل تحديد مفاهيم القيم الإنسانية مع كثرتها والمتنوعة بحسب المكان والزمان وطبيعية كل مجتمع وخصائصه، إلا أنها تكاد تشترك ضمن المفاهيم الثلاث وهي الدين والعادات والتقاليد، ومنها يمكن التطرق إلى ما يمكن من مفاهيم أخرى وحسب طبيعة الظرف المناسب .

المحور الأساس الذي وجدت فيه العولمة تهديدا لموقعها الاجتماعي والحذر من التعامل به بشكل مباشر، كان في الواقع في الجانب العقائدي المترسخ لدى الفرد في مجتمعه والمتمثل بالدين والعادات والتقاليد،ولم تبخل العولمة في استخدام شتى الوسائل المناسبة المادية والمعنوية من أجل التفاعل معه بما يضمن مصالحها، وكان ذلك من خلال استخدام شتى الطرق الملتوية وبمظاهرها الخادعة، كاللبس والأكل والسلوك وتحدي الضوابط الأسرية وغيرها، مما مهد لتقبل العادات والأساليب المناسبة للتفاعل مع هذه المتغيرات (وقد أدى ذلك إلى بروز حالات متفاوتة من الازدواجية التي تمس الشباب على وجهه الخصوص، وهو الجيل الذي تستهدفه ثقافة العولمة تحديدا، وهو ما يتجلى في ظاهرة التنميط الكوني لهذا الجيل على صعيد الملبس والأذواق والكثير من المظاهر السلوكية) حجازي2019 ، ص164 وكلن السبيل المهد أمامها للنجاح هم فئة الشباب كما أسلفنا سابقا، وبما يتمتع به هؤلاء من مرونة وتقبل لكل تغيير، كما كان الإقبال أكبر لهذه المتغيرات من قبل المجتمعات المتقدمة لوفرة البيئة المناسبة لها.

الدين ..

موقف العولمة من الدين موقفا يكتنفه الغموض والتساؤلات فليس هناك موقف محدد من قبلها للدين، وكل ما يمكن معرفته هو أتباع أسلوب مراوغة فكرية لا يتوقع الانتهاء منه إلى نتيجة حاسمة، لما يتضمن ذلك من قوة العلاقة ما بين الفرد والدين كعقيدة راسخة، فالارتباط بينهما هو ارتباط عقائدي سماوي مقدس لا يقبل المناقشة أو التغيير (أن الدين نسق موحد من المعتقدات والممارسات ذات الصلة بأشياء مقدسة، بمعنى أنها أشياء متفردة ذات حرمة – معتقدات وممارسات تتوحد في مجتمع أخلاقي واحد). سكوت ، 2009 ص 203 ، وقد أتبعت العولمة مسلكا وسطا لمحاولة الالتفاف على الفكر الديني وعلى بقية الأديان الأخرى وخصوصا السماوية منها، بالدعوة إلى توحيد الأديان

بدين واحد وصهرها وتذويبها ليمكن لها من إلغاءها مستقبلا ، وقد اختلفت الآراء من قبل الناس وفقا لموقفهم من العولمة بالذات بين مؤيد أو رافض، فمن كان يرى في العولمة أنها ظاهرة حتمية من غير الممكن تحديها، والانصياع لكل ما تفعله بتبرير أنه أفضل مما كان سابقا ، وهم على الغالب المستفيدون من العولمة والعلمانيون والذين كثيرا ما يؤكدون على فصل الدين عن السياسة، وآخرون هم المتطرفون والمتزمتون بالدين والتمسك بحرفيته بكونه منهجا سماويا جاء لتنظيم حياتهم الاجتماعية.

وما زال هذا الاختلاف سائدا بين الطرفين معتمدا على دفاعية كل منهما، بين من يجد في العولمة تحقيق رغباته ومصالحه على حساب الفكر الديني، ومن يرى الصمود من أجل الحفاظ على الدين

التقاليد ..

للتقاليد حضور متميز لدى كل مجتمع وذا مفهوم معقد يصعب احتوائه بجمل بسيطة، فهو مزيج من مفاهيم متعددة كالأخلاق والدين والأعراف والتراث والحوادث.. وغيرها، وكثيرا ما تتجسد مظاهرها في المناسبات العامة كالأعياد والشعائر الدينية والأفراح والتعازي، ألا أن ذلك لا يعني أن التقاليد نخبوية لهذه المفاهيم من جانبها الايجابي، فكثيرا ما تكون التقاليد تتعارض مع مضمون هذه المفاهيم وإيجابياتها مع قناعات أفراد المجتمع بها يجعل منها أمرا لا يمكن معارضته، وهي غير قابلة للتغيير أو الإصلاح ألا بمدد زمنية طويلة أو لظروف قاهرة تفرض على الجميع.

غالبا ما تقتحم العولمة هذه التقاليد والمترسخة في داخل وعي الفرد بإبدالها بنماذج ذات طابع عام يمكن أن يكون مناسبا لأغلب المجتمعات، مما يوحي للآخرين بمقبوليته طمعا في التقليد والتفاخر بين الآخرين، وكان لنجاح العولمة في هذا المضمار كبير الأثر في تفتيت الجماعات .

العادات..

وهي أنماط سلوكية تكتسب عن طريق التعود والتكرار تعكس صور السلوك الاجتماعي وعقلانياته في التعامل مع الآخرين، ومن خلال التقادم الزمني تصبح جزءا من العرف الاجتماعي، وقد يتم توارثها من الأجيال لتصبح جزءا من العرف الاجتماعي، ويطغي عليها الطابع المحلي فنادرا ما تكون ذات صبغة عامة وقد تكون مناطقية في أكثر

الأحيان، ألا أنها تستمد قوتها من المجتمع كجزء من الأعراف المتداولة التي لا يمكن الاستغناء عنها، وكثيرا ما كانت لها محاولات في تصديها للعولمة في محاولة إلغاءها

العولمة والإبداع ..

من الظواهر التي لازمت الإنسان في مسيرته منذ بدايته حتى الوقت الحاضر التي شكلت ضرورة مهمة لاستمراره في البقاء هي ظاهرة الإبداع، فهي التي جعلته يتكيف مع مفردات الطبيعة المتضادة معه التي يصعب التفاعل معها بدون ابتكار ما يناسب التغيرات المستجدة، وخلاف ذلك لما كان هناك أثر لوجود الإنسان على الأرض و (الإبداع هو عملية تحويل الأفكار الجديدة والخيالية إلى حقيقة واقعة، وينتج عنها إحضار شيئ جديد غير موجود سابقا إلى الوجود) الدباغ / بحث 2020 ، ص 3 ، كما أن الإبداع هو بالضرورة أيضا يتطلب صلة التعايش بين أفراد من الناس، فالإنسان وحده غير قادر على الإبداع دون تبادل الخبرات والتواصل مع الآخرين، مما ساعد على خلق مكونات اجتماعية متآلفة فيما بينها.

من سمات العولمة المعتمدة في إمكانية انتشارها في اكبر مساحة من العالم هي عملية التجديد (الإبداع)، وهو بمثابة جواز مرور لاجتياز كل المعوقات أمامها وبمشاركة مع قدرات عالية المستوى وإمكانيات كبيرة، مؤكدة على أن الذكاء الإبداعي لم يعد فاعلا وفق ثقافة معينة أو مجتمع، بل استنادا ألي تصور عالمي وشأن أنساني لا فرديا كما كان التصور سابقا . وهو إشارة إلى أن وحدة العالم أمر ضروري لتحقيق التقدم الحضاري .

من سمات العولمة أنها مبدعة وتأتي بالجديد دائما سواء على المستوى المادي أو المعنوي، ولولا ذلك ما نجحت في مسعاها ذلك ولكانت مجرد ظاهرة لا تختلف غن أي ظاهرة أخرى، في محاولات تسابق محموم من أجل أن تكون في المقدمة دائما بما تعرضه من حداثة، ونقدها لكل الأساليب المتبعة والتي أصبحت متقادمة واستبدالها بما يتناسب والمرحلة الجديدة

الاستنتاجات..

يصعب وضع افتراضات واقعية وعقلانية لما سيؤول وضع العولمة إليه مستقبلا وبأي شكل أو نهج ستكون، فظاهرة مثل العولمة لها من النفوذ والهيمنة على اغلب مفاصل الحياة عالميا، وقدرتها على التجدد بما تملكه من مرونة وقدرة على التجانس مع المتغيرات المستقبلية، ليس من البساطة وضع التوقعات والاستنتاجات لما سيؤول إليه العالم مستقبلا، ولكن لا بأس أن تكون هناك بعض الرؤيا من خلال الحراك الحضاري الذي بدأ يفرز بعض نتائج أهداف العولمة على الواقع، وما استنتاجاتنا ألا ضمن هذا الحدس المصحوب بالحذر من التجليات في المستقبل .

1 – البطالة

من المعضلات الأساسية التي تتحدى العولمة في مزاعمها ببناء نظام عالمي جديد يخلو من ترسبات المظاهر السلبية السابقة، هي ظاهرة البطالة التي استفحلت بصورة أشد وأعظم مع مرور الزمن، وكانت للعولمة الدور الكبير المسبب لتنامي هذه الظاهرة، وكذلك عجزها الكبير في محاولة علاجها أو حتى الحد من ارتفاع نسبها وعلى المستوى الدولي أو المحلي ، ومع كل ما توفر لدى العولمة من إمكانيات مادية ومعنوية في مساعدتها لتحقيق ذلك الهدف، فلم تفلح محاولاتها بسبب التطور التكنولوجي الكبير الذي لم يأخذ بالحسبان الضرر الذي سببه للفرد العامل، فالعاطل الذي يمتلك القدرة على ممارسة العمل ألا أنه يخفق في الحصول عليه ويفقده القدرة على الإنفاق يمثل أكبر كارثة إنسانية تتعرض لها البشرية، وكثيرا ما سببت هذه الظاهرة وعلى مدى التاريخ في انهيار الكثير من الامبروطوريات وحضارات دول عديدة، مما يشكل ذلك هاجسا مخيفا لدى الدول الرأسمالية وخصوصا العولمة في قرب انهيارها

2- العولمة ... قرار دولي

لم تكن العولمة في يوم ما جزء من إرهاصات النظام الرأسمالي كما هو الحال مع المظاهر الأخرى التي أفرزها النظام ضمن طبيعته ، وإنما قد استحدثت من قبل مؤسسات عالمية سعت لمعالجة التداعيات التي بدا يتعرض لها النظام، والتي أصبحت تزداد حدة مع مرور الأيام، لذا سعت منظمة التجارة الدولية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي الذي يمثل الفكر المالي الأمريكي، في أقرار مبدأ العولمة لهدف تحرير التجارة الدولية والهيمنة على اقتصاديات العالم، وبطريقة تقديم القروض الميسرة ومنح المساعدات

المجانية للدول الضعيفة والفقيرة، وبهدف استغلالها الكامل لهذه الدول، من كافة الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية . وهكذا .

أن العولمة ظاهرة طارئة ودخيلة على النظام الرأسمالي تم فرضها من مؤسسات استعمارية، لأجل إنقاذ النظام من التداعيات والانهيارات التي بدأت تظهر عليه وتهدد بسقوطه، وعلى حساب باقي الدول الفقيرة والمتخلفة والتي تعرضت لشتى الاستغلال من قبل العولمة.

3 – العولمة والشباب

سبق وان أكدنا وكذلك الجميع بان العولمة ظاهرة شبابية بامتياز وأن شبابنا ألان هم شباب العولمة أيضا، فهم أي الشباب يمثلون السند الأساس الذي تستمد منه العولمة طاقاتها وفرض وجودها، لذا تحاول العولمة استغلال اندفاعهم وتهورهم العاطفي وتوجه قراراتهم نحو مصالحها الخاصة، إلا أن ذلك لا يعد بالأمر الأكيد بالنسبة للشباب ذوي التطلعات الطموحة وسرعة التغير في الأهداف بعد مرور فترات من الزمن، وهو ما حدث قبلا وما يحدث الآن مما يصعب على العولمة أن تجد فيهم ملاذا موافقا لاتجاهاتها في المستقبل البعيد .

4- المنافسات الدولية

النجاحات المتتالية التي حظيت بها العولمة وعلى كاف الأصعدة سواء على المستوى المادي (التكنولوجي) أو المعنوي (الثقافي)، واستغلال هذه النجاحات في فرض سياستها الاستعمارية على الكثير من الدول الفقيرة، والتدخل في وضعها دون المراعاة لسيادتها، ومن جانب آخر التطور الكبير الذي طرأ على عدد من الدول (غير الأوروبية) وأغلبها أسيوية، بشكل فاق معدلات التقدم لدى الدول العريقة في كافة المجالات كالصين واليابان وكوريا الجنوبية والهند، والتنافس معها على الأسواق العالمية بشكل عاصف، جعل الكثير من هذه الدول الفقيرة والمتخلفة تميل للتعاون مع هذه الدول بدلا من الدول الأوربية ، خصوصا أن هذه الدول لا تتدخل بشؤونهم الداخلية، كما أن هناك تسهيلات في أسعار منتجاتهم الرخيصة مما شكل ضربة قاسية للدول الصناعية الكبرى، وبصورة غير مباشرة كانت الضربة اكبر لظاهرة العولمة أيضا، مما أدى على انحسارها تدريجيا، وتحول اتجاه الطلب نحو هذه الدول المتجانسة ثقافيا واجتماعيا مع وضعهم الخاص .

المصادر

1- الدعمي، لاهاي عبد الحسين، مقدمة في علم الاجتماع ، سنة 2011 ، المركز العلمي العراقي ، بغداد

2- الاشتراكية ، موسوعة الهلال، دار الهلال، ممصر ،ص 1968

3- العيسى ،عبد الجليل ،بحث / التخطيط لإستراتيجية الثقافة،مصر،2008

4- حجازي ، مصطفى، التخلف الاجتماعي،2005

5 – حجازي، مصطفى، التخلف الاجتماعي، 2005

6- أمين، سمير،بحث / مناخ العصر، رؤية نقدية للعولمة، القاهرة،2011

7- الدعمي، لاهي عبد الحسين، مقدمة في علم الاجتماع، المركز العلمي العراقي، بغداد، 2001

8- حجازي، مصطفى، علم النفس والعولمة، المركز الثقافي العربي، 2010

9- مرسول محمد، مازن، سوسيولوجيا الأزمة، سنة لا يوجد ، العارف للمطبوعات ، بغداد

10- عبد الرحيم، ثناء، قراءات في علم الاجتماع السياسي، 2013، بيت الحكمة ، بغداد

11- ديوي، جون / الفردية قديما وحديثا، دار الفرقد،2014

12- حجازي، مصطفى، الإنسان المهدور، المركز الثقافي العربي، 2006

13 – ياسين، عدنان، المجتمع العراقي وديناميات التغير، بيت الحكمة، بغداد ، 2011

14 – علي عباس، دانيال، الاغتراب النفسي ،عمان، 2007

15 – مولود زايد، الطبيب، العولمة والتماسك المجتمعي في الوطن العربي، أطروحة دكتوراه غير منشورة ،جامعة بغداد / بغداد

16- الدعمي، لاهاي عبد الحسين، مقدمة في علم الاجتماع، المركز العلمي العراقي، بغداد،2011

17- الدباغ، قاسم، بحثن مجلة قسم الاجتماع، العدد 44، بيت الحكمة، بغداد

18- الربيعي، فضل عبد الله، التغيير الاجتماعي ، 2020 ، بيت الحكمة